لقد ربح الغرب

بقلم (فرنسيس فوكوياما)

يزعم تيار من المعلقين أن مأساة ١١ أيلول الماضي تثبت بأنني كنت مخطئاً تماماً عندما قلت قبل أكثر من عقد من الزمن بأننا قد وصلنا إلى نهاية التاريخ. من المهين تبعاً للظواهر، ـ لذكرى الذين قُتلوا، الإعلان عن أن هذا الهجوم، غير المسبوق، لم يرتق إلى مستوى الحدث التاريخي. لكن الطريقة التي استخدمت فيها كلمة تاريخ كانت مختلفة: إنها تشير إلى التقدم عبر العصور نحو الحداثة التي تتميز بالمؤسسات مثل الديموقراطية والرأسمالية.

تفيد مشاهدتي، التي قمت بها في العام ١٩٨٩، عشية انهيار الشيوعية، بأن هذا المسار التطوري بدا وكأنه يدفع بأجزاء كبيرة من العالم نحو الحداثة. وإذا ما نظرنا إلى ما وراء الديموقراطية الليبرالية والسوق، ليس هناك شيء آخر يمكن أن نتوقع التطور باتجاهه؛ إذا أنها نهاية التاريخ، وفيما لا تزال هناك مناطق تتحرك في الاتجاه المضاد وتقاوم هذا المسار، يصعب العثور على حضارة بديلة قابلة للحياة، يريد الناس العيش في إطارها بعدما انهارت الثقة بالاشتراكية والملكية والفاشية وغيرها من أنماط الاستبدادية.

تحدى العديد من الأشخاص وجهة النظر هذه، ومعظمهم مرتبط ربما بصموئيل هنتنغتون الذي جادل بأنه عوضاً عن التقدم باتجاه منتظم عالمي واحد، يبقى العالم غائصاً في «صدام حضارات» تتعايش في خلاله ست أو سبع مجموعات حضارية رئيسية، من دون أن تتجمع، وإنما تشكل

obeikandl.com

خطوط انقسام جديد للصراع العالمي، ومنذ أن ارتكب مسلمون متطرفون - غير مسرورين من وجود الحضارة الغربية - الهجوم الناجح على مركز الرأسمالية العالمية، والمراقبون يفضلون رؤية هنتنغتون «الصدامية» على فرضيتي في «نهاية التاريخ».

أعتقد أنه في نهاية المطاف سأبقى محقا: الحداثة هي قطار شحن قوي جداً لن تخرجه الأحداث الأخيرة، مهما كانت مؤلمة، عن مساره، ستبقى الديموقراطية والأسواق الحرة تتوسع كمبادئ منظمة مهيمنة على معظم العالم. لكن من المفيد التفكر في ماهية الفرص الحقيقية للتحدي الحالي.

للحداثة أسس ثقافية، لا تعمل الديموقراطية الليبرالية والأسواق الحرة في كل مكان ذلك أنهما تقدمان أداء أفضل في المجتمعات التي تملك قيماً قد لا تكون أصولها عقلانية كلياً. لم تكن مصادفة ظهور الديموقراطية الليبرالية المعاصرة، لأول مرة، في الغرب المسيحي، فعالمية الحقوق الديموقراطية يمكن أن ترى كشكل علماني من أشكال عالمية المسيحية.

السؤال المركزي الذي أثاره هنتنغتون هو ما إذا كانت مؤسسات الحداثة ستعمل فقط في الغرب أم أن هناك أمراً رحب الأفق في دعواها يسمح لها بإيجاد موطئ قدم لها في مكان آخر. أعتقد بوجود أمر كهذا. البرهان يعتمد على التقدم الذي حققته الديموقراطية والأسواق الحرة في مناطق مثل شرق آسيا وأميركا اللاتينية وأوروبا الأرثوذكسية وجنوب آسيا وحتى في أفريقيا. كما يعتمد على ملايين المهاجرين من العالم النامي الذين يصوتون بإقدامهم كل عام من أجل العيش في المجتمعات الغربية، أما عدد الذين يتحركون في الاتجاه المعاكس، والذين يريدون تفجير كل ما يستطيعون من الغرب، فهو ثانوي.

لكن يبدو أكيداً أن هناك شيئاً ما حول الإسلام، أو على الأقل حول النسخة الأصولية منه كان مهيمنا في الأعوام الأخيرة وجعل المجتمعات

الإسلامية خاصة، مقاوِمة للحداثة من بين جميع المنتظمات الثقافية المعاصرة، في العالم الإسلامي أقل عدد من الديموقراطيات (تركيا وحدها) كما أن أياً من دوله لم تحقق نقلة نوعية تجعلها بلداً متطوراً على غرار ما فعلت كل من كوريا الجنوبية وسنغافورة.

هناك عدد كبير من غير الغربيين الذين يفضلون الجزء الاقتصادي من الحداثة ويأملون في الحصول عليه من دون الاضطرار إلى القبول بالديموقراطية معه. وهناك آخرون ممن يرغبون بالوجهين الاقتصادي والسياسي للحداثة لكنهم عاجزون عن إيجاد الطريقة لتحقيق ذلك. بالنسبة إليهم، الانتقال إلى الحداثة على الطريقة الغربية قد يكون مساراً طويلاً ومؤلماً. لكن لا توجد حواجز ثقافية لا يمكن التغلب عليها لكي تمنعهم من الوصول إلى مبتغاهم وهم يشكلون نحو أربعة أخماس سكان العالم.

على النقيض من ذلك، يشكل الإسلام المنتظم الثقافي الوحيد الذي لا ينفك ينتج بانتظام أشخاصاً مثل أسامة بن لادن أو الطالبان الذين يرفضون الحداثة. هذا الأمر يطرح السؤال حول القدرة التمثيلية لأشخاص كهؤلاء في المجتمع الإسلامي بشكل عام وحول ما إذا كان هذا الرفض متأصلاً في الإسلام.. ففي حال كان الرافضون أكثر من مجرد جناح متطرف، عندها يكون هنتنغتون محقاً بأننا باتجاه صراع طويل جعلته خطيراً فضيلة التخلف التكنولوجي لديهم.

الجواب الذي ردده السياسيون في الشرق والغرب منذ ١١ أيلول هو أن المتعاطفين مع الإرهابيين ليسوا سوى «أقلية ضئيلة» من المسلمين، وإن الأغلبية العريضة روّعها ما حصل. كان قول ذلك مهماً لتجنيب المسلمين التحول إلى أهداف للضغينة. المشكلة هي أن الكره لأميركا وللقضايا التي تدعمها أكثر انتشاراً.

الولايات المتحدة بالغة الصغر. لكن التعاطف معها قد لا يترجم عملياً بأكثر من الشعور الأولي الذي ينتاب المشاهد في موقع البرجين المنهارين، نوع من الشعور بالرضى بأن الولايات المتحدة حظيت بما تستحق، تبعثه بعض التعابير عن عدم الموافقة. وفقاً لهذا المعيار، ميز التعاطف مع الإرهابيين أكثر من مجرد «أقلية ضئيلة» من المسلمين ليطال الفئات الوسطى في بلاد مثل مصر إلى المهاجرين في الغرب.

يبدو أن هذا الكره الذي لا يعرف حداً يمثل شيئاً أكثر عمقاً من مجرد معارضة للسياسات الأميركية مثل دعم إسرائيل أو حصار العراق، ويشمل الضغينة التي تكنها الفئة الدنيا من المجتمع. فبعد كل شيء، العديد من الأشخاص في مختلف أنحاء العالم، وبينهم أميركيون، لا يوافقون على السياسات الأميركية، لكن ذلك لا يخلق لديهم نوبات من الغضب كما لا يدفع بهم نحو العنف. ليست هذه بالضرورة مسألة جهل لنوعية الحياة في الغرب، فالخاطف الانتحاري محمد عطا كان رجلاً مثقفاً جداً ومن عائلة مصرية ميسورة عاش ودرس في الولايات المتحدة لسنوات عدة، لعل الضغينة نشأت من الإحساس بالنجاح الغربي والفشل الإسلامي.

لكن عوضاً عن القيام بتحليل نفساني للعالم الإسلامي، من الأجدى التساؤل عما إذا كان الإسلام الأصولي يشكل خياراً جدياً بديلاً عن الديموقراطية الليبرالية الغربية. (ليس لدى الإسلام الراديكالي نظرياً من يستند إليه في العالم المعاصر غير هؤلاء الذين يتحدرون من ثقافات إسلامية). بالنسبة للمسلمين أنفسهم، أثبت الإسلام السياسي أنّ الإعجاب به على المستوى النظري أكثر بكثير منه على أرض الواقع. فبعد ٢٣ عاماً من حكم رجال الدين الأصوليين، معظم الإيرانيين، خاصة الشبان، يريدون العيش في مجتمع أكثر ليبرالية بكثير، ويحس الأفغان، الذين خبروا حكم طالبان، بالشعور نفسه، وبالتالي، الضغينة ضد

الأميركيين لا تترجم إلى برامج سياسية قابلة للحياة ويمكن للمجتمعات الإسلامية اتباعها.

نبقى في نهاية التاريخ لأن هناك ناظماً واحداً يستمر مهيمناً على السياسات العالمية وهو الغرب الديمقراطي الليبرالي. هذا لا يعني عالماً خالياً من الصراع ولا اختفاء الثقافات. لكن الصراع الذي نواجهه ليس صداماً بين ثقافات عديدة، مختلفة ومتساوية، تتقاتل في ما بينها على غرار القوى العظمى في القرن التاسع عشر في أوروبا. الصدام يقتصر على سلسلة من المعارك الوقائية أو الجهود الدفاعية الصادرة عن مجتمعات غدا وجودها التقليدي مهدداً جراء الحداثة. إن قوة الرد تعكس صرامة وقسوة هذا التهديد. لكن الوقت في صالح الحداثة ولا أرى قصوراً في إرادة الولايات المتحدة بالفوز[1].

(١) السفير «اللبنانية» السبت ١٣ ـ تشرين أول ٢٠٠١م ترجمة المقال إيلي شلهوب ـ والمقال الأصلي لفوكوياما منشور بالغارديان يوم ١١/١٠/٢٠٠١م.

open-kandil.com